

الإسلام وتاريخه الأنثروبولوجي

أحد الأصدقاء في تعليقه على مقالة الأسبوع الماضي «أدوارد سعيد من موقع النقد الغربي»، فتح الباب على مقارنات تتعلق بمشاريع فكرية توالي مشروع أدوارد سعيد بل تراها من وجهة نظرها أعمق لأنها ركزت في رؤيتها النقدية على طبيعة العقلانية الأداتية للحداثة الغربية ويعطي مشروع وأئل حلاق مثلاً على ذلك.

قد تبدو المقارنات مشروعة إذا ما وضعنا هذه المشاريع في سياق نقد ما بعد الحادثة وذلك في سعيها لتفكيك المركزية الغربية في تمويعها حول ذاتها الأوروبية معرفياً واجتماعياً وثقافياً وأخلاقياً، فهي لهذا السياق برزت نظريات متعددة وفي حقول معرفية مختلفة بدءاً من مدرسة فرانكفورت النقدية ومروراً بفلسفه الاختلاف وليس انتهاءً عند أدب ما بعد الاستعمار.

لكن بالعودة إلى ملاحظة المصدق أقول: وأئل حلاق لم ينظر الاستشراق من زاوية نظر أدوارد سعيد، خصوصاً في كتابه الأساس *الشريعة* وتالياً كتابه *الدولة المستحيلة*، بل نظر إليه ضمن ثنائية الحادثة الغربية والإسلام من موقع الباحث المستقل بعيد عن الخصوص والاستسلام للفكر الغربي، وهو بذلك يسعى إلى إعادة التفكير في مفاهيم الحادثة التي أصبحت كونية كالليبرالية ومفهوم العدالة والحرية والشريعة والقانون الوضعي انطلاقاً من إمكانية العودة إلى النصوص التراثية في الإسلام، فالنص التشريعي على سبيل المثال ينطوي على أماكنيات صياغة مفاهيمية للعقلانية التي ترتبط بعقلانية الدولة . وبحكم تخصصه في الشريعة وأصول الفقه فهو يضعنا مباشرة أمام إشكالية تلقي مفاهيم الحادثة من منظور الاجتهد في نصوص الشريعة، وهو يذكرني بالفيلسوف المغربي عبد الرحمن طه الذي كانت إنطلاقته من المتنق وفقه اللغة للتأسيس لمفاهيم حادثية مشتقة من الفكر والتراث الإسلامي. لكن اشتغالات سعيد كان تأثيرها أوسع على الفكر الغربي لأنه بكل بساطة وضع الأدب الغربي في تحالف تام مع فكره الاستشراقي لإبراز الصورة التخييسية للإنسان العربي المسلم. والأهم أن أدواته المنهجية جميعها مستمدّة من الفكر الغربي نفسه .

من وجهة نظري اشتغالات وأئل حلاق تحقق نوعاً من الاستقلالية عن الفكر الغربي إلا أن المشكلة لا ترتبط بمفهوم الاستقلالية الذي انشغل به الكثير من الباحثين منذ خمسينات القرن الماضي مثل فلسفة عبدالكبير الخطيب وغيره. لكن المشكلة أن مصطلح الإسلام نفسه لم يستنفد تاريخه الأنثروبوجيا، وكما قال هودجسون رائد دراسة التاريخ الإسلامي كتاريخ للعالم «ينفرد الإسلام عن بقية الديانات بتتنوع أعراف وأجناس المنتدين إليه»، وهذا معناه صعوبة الوقوف على مفاهيم نهاية يمكن من خلالها أن نطرح قيم

تمثل الحصيلة النهاية للإسلام التاريخي والإسلام العقائدي.

ودعوني أختتم مقالتي بهذه القصة التي يرويها الباحث الباكستاني شهاب أحمد في مستهل كتابه المهم (ما الإسلام) والتي لها مغزى عميق في أزمة فهم الإسلام رغم المشاريع الضخمة التي تناولت تراثه وتحصمت فيه من العمق. يقول «حضرت منذ عدة أعوام مأدبة عشاء في جامعة برينستون؛ حيث شهدت حواراً كاشفاً بين فيلسوف أوروبي بارز، وباحث مسلم يجلس إلى جواره. كان الزميل المسلم يشرب من كأس النبيذ، ومن الواضح أن الفيلسوف انددهش مما رأه، ولم يسعه في نهاية المطاف، إلا أن يستأذن جاره الجالس جواره في أن يطرح عليه سؤالاً شخصياً جريئاً، وهكذا دار الحوار بينهما:

هل تعتبر نفسك مسلماً؟

أجل

لماذا تشرب النبيذ إذا؟

ابتسم الزميل المسلم ابتسامة ودودة، ثم قال:

أنا من عائلة مسلمة منذ ألف عام، وهي لم تتوقف عن تناول النبيذ طيلة تلك القرون.

بدا الضيق على قسمات وجه أستاذ المنطق الشاحبة، الأمر الذي استدعي من زميلي مزيداً من التوضيح: كما ترى نحن مسلموون ونشرب النبيذ

استمررت حيرة وتساؤل صاحبنا

ولكنني لا أفهم

حقاً ولكنني لا أفهم !!.

ما رواه الباحث هو نموذج واحد من صور متعددة لحالات تاريخية اجتماعية ثقافية لم توضع موضع المسائلة والنقاش تحت إطار الإسلام.